الفصل الثالث

العودة إلى المنهج السلفى

(المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح).
ابن تيمية

ابن تيمية

فى تاريخ العظماء وحدة تتجلى فى الأشباه والنظائر من آثار العمل العظيم كلما تكرر. ومن هنا تشاكل ابن حنبل وابن تيمية وتشابه ابن تيمية وابن عبد الوهاب.

ومن الوحدة كانت كل كلمة تقال فى واحد من الثلاثة مقولة صالحة فى الآخرين. ولئن متاز ابن عبد الوهاب بأنه أعاد الناس إلى «التوحيد» بالحرب.. إن ابن تيمية كان نخبة مدرسة ابن حنبل، والقدوة لابن عبد الوهاب فى كل ما عمله أو علمه. جاء مجيء همسة من السماء فى أسماع أمة قال عنها شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق فى كتابه (فيلسوف العرب أو المعلم الثانى): (كانت الدولة الإسلامية فى هم مما أصابها من أثر الخراب المغولى، فأصبحت الفرصة سانحة لتوجيه الشعب إلى إصلاح إسلامى بالرجوع إلى السنة التى كان الخروج عنها مدعاة لغضب الله).

ولد أحمد تقى الدين أبو العباس بن شهاب الدين عبد الحليم بحران وهاجر به أبوه أمام زحوف التتار إلى دمشق حيث صار أبوه شيخ المدرسة السكرية فى الحديث، وبها كان سكنه حتى مات سنة ٦٨٢، وفى المدرسة تربى أحمد وأصبحت دمشق موطنه. فعاش فيها حتى مات سجيناً فى قلعتها سنة ٧٢٨ من أجل آرائه.

أما جده فالشيخ مجد الدين أبو البركات (٦٥٢) صاحب المؤلفات فى المذهب. ومنها كتاب «مسودة الأصول» التى زاد فيها ابنه ثم حفيده. فهى أول مؤلف جماعى فى الفقه الإسلامى لأسرة ألف فيها الجد والأب والحفيد - وهى - بعد - مدرسة زهد.

والورع معلم من معالم مذهب ابن حنبل. يقول ابن عقيل: (... فأما أصحاب أحمد فإنه قل فيهم من تعلق بطرف من العلم إلا يخرجه ذلك إلى التعبد والنزاهة لغلبة الخير على القوم).

وكان فى دمشق مدارس أخرى للحنابلة منها المدرسة العمرية التى أنشأها أبو عمر بن قدامة الأخ الأكبر لموفق الدين (صاحب المغنى والمقنع) وقد لازم عمر صلاح الدين فى حروبه.

ولموفق الدين أثر كبير فى فقه ابن تيمية.

وكان العصر عصر غارات التتار والصليبيين - والمسلمون بحاجة إلى شجاعة النفس بالجهاد، وإعمال الفكر بالاجتهاد.

أما شجاعة النفس ففيها يقول أمير من أمراء دمشق:

قال لى الشيخ ابن تيمية يوم اللقاء وقد تراءى الجمعان: يا فلان، أوقفنى موقف الموت! قال فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم، ثم قلت له: يا سيدى، هذا موقف الموت وهذا هو العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة فدونك وما تريده. فرفع طرفه وشخص ببصره إلى السماء وحرك شفتيه طويلاً، ثم انبعث وأقدم على القتال. ثم طال القتال والالتحام بيننا وانحاز التتار إلى جبل صغير عصموا أنفسهم به من سيوف المسلمين تلك الساعة، وكان آخر النهار - فإذا بالشيخ وأخيه يصيحان بأعلى صوت تحريضاً على القتال وتخويفاً للناس من الفرار، فقلت يا سيدى قد فتح الله ونصر وهاهم أولاء التتار محصورون بهذا السفح، وفى الغداة إن شاء الله يؤخذون عن آخرهم؛ فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وحاربهم كذلك بالجبل حتى جلوا عنه وتم الفتح المبين.

وأما عن الفكر والاجتهاد فربما أحسن إجمال أمره قوله عن نفسه:

(ربما طالعت فى الآية نحو مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم). فبين هاتين النهايتين من البطولة والورع تمت واكتملت عقلية «مجاهد». فى كل ميدان للإسلام فيه شأن، وطريقة عالم يعمل قدر ما يعلم. وما كان أعظم ما علم وأجل ما عمل.

* * *

يقول ابن دقيق العيد: إنه كان (رجلاً سائر العلوم بين عينيه يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء) ويقول ابن سيد الناس: (لم ترَ عين من رآه مثله ولا رأت عينه مثل نفسه) يخرج عن مذهبه الحنبلى، ويخرج عند اللزوم على جميع المذاهب مادام يؤيده القرآن والسنة، فإذا الأمة الإسلامية التى قاومه جهالها فى حياته من أجل بعض فتاواه - تهرع فى القرن الرابع عشر إلى هذه الفتاوى ذاتها لإصلاح حالها. فهو قد سبقها إلى العلم الصحيح والمصلحة الشرعية بقرون سبعة.

أما جهاده للنهى عن المنكر فكان مثلاً فريداً فى البأس، يضربه عالم يسير إلى السجن باختياره مثنى وثلاث.

وأما عن العقيدة والفقه فقد أعاد إلى المذهب السلفى صولجانه. وأمست مؤلفاته - وهى نحو

خمسمائة – منهلاً للمجددين فى الفقه والإصلاح الدينى والاجتماعى فى كل عصر جاء بعده.

وكان كثير من فساد العقائد ناجماً عن ألاعيب أدعياء التصوف فى عصره وأضاليل الباطنية وعباد الأصنام و «هيئة المنتفعين» بها، ممن يمدون بالأسباب إلى السلطان.

وهو عالم سلفى لا يرضى الدنية فى دينه. وعلى هذا طالت حربه لأصحاب البدع طول حياته.

وشجع شجاعة العالم الذى ترتجيه أمته فى محنتها.

شكا إليه رجل من ظلم الأمير له فنهد إلى الأمير مع المظلوم يطلب حقه.

قال الأمير متهكماً: كنت أريد أن أجىء إليك لأنك عابد زاهد.

قال ابن تيمية: (موسى كان خيراً منى وفرعون كان خيراً منك، وكان موسى يجىء كل يوم إلى باب فرعون ثلاث مرات يعرض عليه الإيمان).

وفى سنة ٦٩٩ والتتار يحيطون بدمشق دار على الخمارات مع أصحابه يغلقونها ويريقون محتوياتها ويعزرون أصحابها، ويذكرون الناس أنهم فى حرب.

وفى سنة ٧٠٠ خف إلى مصر يستحث السلطان لإنقاذ الشام، وخرج من دمشق إلى الجبال يحارب أعوان التتار على أبناء جنسهم.

وفى سنة ٧٠٢ كان فارس الحرب فى موقعة شقحب. وفى سنة ٧٠٤ خرج مع صحبه فأزالوا صخرةً كان الناس يقدمون لها النذور، وفى سنة ٧٠٥ خرج مع السلطان يبددون الفرق الإسلامية التى كانت تتربص بالمسلمين الدوائر، وحارب أكلة الثعابين ومقتحمى النيران من أصحاب الطرق. وراسل القساوسة يهدى للإسلام.

وفى سنة ٦٩٨ أصدر فتواه لأهل حماه فى الصفات التى وصف الله تعالى بها نفسه: إن علينا أن نؤمن بها كما نزلت بها عبارات القرآن والسنة دون تأويلها، مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه.

والله تعالى يقول (ليس كمثله شىء) فإذا قال تعالى: (يد الله فوق أيديهم) فمعناها هو الذى أراده الله من صريح النص دون تجسيد لذاته. ولا تشبيه لها بخلقه. ولا للخلق بها؛ وهذا لم تحتج الصحابة إلى تأويل النص، لأنهم فهموه مع رسول الله ﷺ كما يفهم القرآن. وفى ذلك قول مالك فى معنى (الرحمن على العرش استوى) «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة» وأمر من سأله من أحاديث الصفات بقوله:

(أمضِ الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد إلا بما جاءت به الآثار).

وطالبه القضاة بالدفاع عن فتاواه فحضر ودافع.

ثم أعادوا الكرة فى سنة ٧٠٥ فاتهموه بأنه يقول: إن الله يجلس على العرش ويشار إليه بالإشارات الحسية: يقصدون أن الله يجلس كما يجلس الناس، وأنه يتكلم بحرف وصوت.

وطلبه السلطان من دمشق إلى القاهرة فحضر ، ولم يأذن له القضاة بالدفاع . وسجنوه عاماً وبعض العام .

فلما خرج رفض العودة إلى دمشق ، وبقى فى القاهرة يعلم الناس ، ويكذب الحشوية المشبهين والمجسمين ، ويفند أكاذيب الكاذبين من أتباع بعض الطرق كمن يأكلون الثعابين ويدعون أن سمها لا يصيبهم ، أو يدخلون ناراً ويخرجون منها بسلام . واشتد على المتصوفة المتفلسفين كابن عربى وأقوالهم فى الوحدة مع الله وحلوله فيهم وفنائهم فيه ! وله فى ذلك رسالة مشهورة إلى النصر المنبجى – كما أفتى بتحريم زيارة القبور والتوجه للأولياء بالدعاء والتوسل .

واسودت الدنيا فى وجوه المنتفعين بهذه الأعمال . فشكوه إلى السلطان ، فخيره بين أن يقيم بمصر أو بالإسكندرية بشرط (السكوت) وبين الحبس فاختار الحبس على الحرية المشروطة ، فحبس بالإسكندرية عامين حتى سنة ٧٠٩ .

ثم أطلق سراحه سلطان جديد . وحكّمه فيمن حكموا عليه ، فأعلن عفوه عنهم وفيهم قاضى القضاة . فكان إصلاحاً من عالم لجاهل ومن مظلوم لظالم .

وفى سنة ٧١٢ برح مصر إلى دمشق يعلم الناس ويفتيهم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

* * *

كشفت فضائح العصر للفقيه الفحل عن «مهمة حياته» فلم يذهب بددا تناوش الحشويين والباطنيين معه ، وانطلق يعلن فى كل مقام أنه ليس بين الله وبين عباده وسائط إلا الرسل ، ومن قال بغير ذلك مشرك كافر يستتاب وإلا قتل ، لأنه يجعل لله ندا ، ونصوص القرآن تكفر من يتخذ الملائكة والنبيين أرباباً فكيف بغيرهم ؟ وإذا كان لرجل أن يقول لآخر : ادع لى – فهذا مشروع ، أما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم فلم يشرع لنا أن نقول : ادع لنا أو اسأل لنا ربك .

ولا تشد الرحال إلى الموالد أو زيارة الأضرحة أو تقام القباب الضخمة على رفات الموتى وتتخذ مساجد ، ومن جهل ما أمره الله به لم يكن من أوليائه وإن كان صاحب عبادة كالرهبان وغيرهم .

وكذلك من علم ولم يعمل بعلمه . بل هو قد يكون فاسقا أو فاجراً ، ومن تعبد بالصمت الطويل الذى يترك الواجب أو بالقيام فى الشمس أو العرى أو الجوع والعطش فهو ضال مبتدع .

وعرف بالأولياء تعريف المفسرين بأنهم : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

وقال : إن (أهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون تارة أخرى كأهل النظر والاستدلال فى مدار الاجتهاد . ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول فى بعض دينه وهذا من أقوال المارقين) .

أما ادعاء العصمة للأولياء فأصدق قول فيه قوله (ذلك الخليط من الحكمة الذى يجمع بين خرافات الفرس ووثنية الإغريق وعقائد اليهود الذين حرفوا دينهم من قبل).

وأما إظهار الصوفية أنفسهم فى لباس خاص (فجاراة لمسوح الرهبان).

(وهدى نبينا أحب إلينا. وكان ﷺ يلبس القطن وغيره).

وتظهر زراية ابن تيمية على الإفراط فى الحساسية التى تعترى بعضاً عند سماع القرآن فى قوله: لم يكن فى الصحابة من هذا حاله وليس بيننا وبين هؤلاء الذين يصفقون عند سماع القرآن إلا أن يُقرأ على أحدهم وهو على حائط. فإن خر فهو ساقط.

أما عن الأبدال والنجباء والنقباء أو «الكادر» الذى يصطنعه المتصوفة فقال: (هذه الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من العامة والنساك مثل الغوث الذى بمكة والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلثمائة -- فهى ليست فى كتاب الله ولا هى مأثورة عن النبى ﷺ لا بإسناد صحيح ولا ضعيف يحتمل إلا لفظ الأبدال فقد روى فيهم حديث شامى منقطع الإسناد عن على كرم الله وجهه...).

* * *

أما فقهه ففيه يقول الحافظ الذهبى: (فاق الناس فى معرفة الفقه واختلاف المذاهب وفتاوى الصحابة والتابعين بحيث إذا أفتى لم يلتزم مذهباً بل ما يقوم دليله عنده).

والمذهب عند ابن تيمية أن (قول القائل – لا أتقيد بواحد بعينه دون الباقين – أحسن، بل هو الصواب من القولين. وإن أراد أنى لا أتقيد بها كلها بل أخالفها فهو مخطئ فى الغالب قطعاً، ولكن تنازع الناس: هل يخرج عنها فى بعض المسائل؟ على قولين..).

لهذا ينفرد ابن تيمية بآراء فيها رحمة بالناس... مثل قوله: إن المرأة إذا لم يمكنها الاغتسال فى البيت أو شق عليها النزول إلى الحمام وتكرره – لها أن تتيمم وتصلى.

وقوله: إن من أكل فى رمضان معتقداً أنه فى ليل فبان أنه فى نهار فلا قضاء عليه.

وقوله: إن تارك الصلاة عمداً لا قضاء عليه، بل عليه الإكثار من النوافل رجاء غفران الله له: أى القيام بالتوبة الصحيحة.

وقوله: إن الحلف بالطلاق لا يقع به طلاق، وإنما تجب به كفارة يمين.

وقوله: إن الطلاق الثلاث بفم واحد يقع طلقة واحدة رجعية، فصدر مرسوم فى سنة ٧١٨ بمنعه من الإفتاء فقال: لا يسعنى كتمان العلم، فحبس فى القلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً وعاد يفتى، وأعيد استجوابه وحبس فى القلعة فظل على رأيه.

وهذان القولان الأخيران إصلاحان تاريخيان أصلحت بهما مصر قوانينها فى النصف الأول من

القرن الحالى .

وهو يفرع على أن شروط الزواج أحق الشروط بالوفاء : أن للزوجة أن تشترط على زوجها فى عقد الزواج شروطها . وينفسخ الزواج إذا أخل بشروطها . وأن الوفاء لها بشروطها أولى من الوفاء بشروطه ؛ لأنه يملك أن يحل عقد الزواج بالطلاق .

وهذا الرأى الأخير صيحة من صيحات إصلاح جديد تتردد الآن .

ويفرع على أن المسلمين عند شروطهم إلا ما أحل حراماً أوحرم حلالاً ، حرية الشروط ؛ لأن (مقاصد العقلاء إذا دخلت فى العقد وكانت من الصلاح الذى هو المقصود لم تذهب عفواً ولم تهدر رأساً) وأنه (قد تفيد الشروط مالا يفيده الإطلاق بل ما يخالف الإطلاق) .

وكل مشتغل بتقنين الفقه الإسلامى فى العصر الحالى يجد كفايته فى النصوص ، مفردة أو مجتمعة ، وفى المعانى الكلية المستنبطة من مجموع النصوص ، ويعتمد على أن « المسلمين عند شروطهم » .

أوكما قال ابن تيمية : (الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجح أو محض ، فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساده مغموراً بالمصلحة لا يحظره أبداً) .

ويضع ابن تيمية الأساس للأخذ بالنصوص وهو :

١ – أن المعقول الصريح لا يناقض المنقول الصحيح . فالنقل والعقل لا يتعارضان بحال ؛ وإنما العيب عيب الذين يقل إلمامهم بالمنقول أو يخطئون فى المعقول .

٢ – عند مظنة التعارض ينهم العقل بالتقصير ؛ لأن العقل ليس معصوماً ؛ وإنما الشارع معصوم .

يقول : (إن من كان متبحراً فى الأدلة الشرعية أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص والأقيسة) .

ويقول : (وبالجملة فما عرفت حديثاً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح ، بل متى رأيت قياساً يخالف أثرا فلابد من ضعف أحدهما . لكن التمييز بين صحيح القياس وفاسده مما يخفى الكثير منه على أفاضل العلماء فضلاً على من هو دونهم)[1].

---

(١) يقول الشافعى فى الرسالة : (. . . لم نجد عنه « صلى الله عليه وسلم شيئا مختلفا » فكشفناه إلا وجدنا له وجها يحتمل أن يكون مختلفا وأن يكون داخلا فى الوجوه التى وصفت لك أو نجد الدلالة على الثابت منه دون غيره بثبوت الحديث ، فلا يكون الحديثان اللذان نسبا إلى الخلاف متكافئين فنصير إلى الأثبت من الحديثين أو يكون على الأثبت منهما دلالة من كتاب الله وسنة نبيه . ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا وهما مخرج أو على أحدهما دلالة بأحد ماوصفت . . .)

ويقول : (وقد تأملت من هذا الباب ما شاء الله فرأيت الصحابة أفقه الأمة وأعلمها وقد بينت فيما كتبت أن المنقول فيما عن الصحابة – هو أصح الأقوال قضاء وقياساً وعليه يدل الكتاب والسنة ، وعليه يدل القياس الجلي . وكل قول سوى ذلك تناقض فى القياس مخالف للنصوص ، وما شاء الله من المسائل لم أجد أجود الأقوال فيها إلا الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . وإلى ساعتى هذه ما علمت قولاً قاله الصحابة ولم يختلفوا فيه إلا كان القياس معه . لكن العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم ؛ وإنما يعرف ذلك من كان خبيراً بأسرار الشرع ومقاصده .

وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن يفوق التعداد . . .)

ذلك تفسير قول الشافعى فى رسالة الأصول (وأما أن نخالف حديثاً عن رسول الله ثابتاً عنه فأرجو ألا يؤخذ علينا ذلك إن شاء الله . وليس ذلك لأحد ، ولكن قد يجهل الرجل السنة فيكون له قول يخالفها لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل الرجل ويخطئ فى التأويل) .

* * *

اشتهر عند المستشرقين كتاب ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية »[1] لمعالجة هذا الكتاب لأنظمة الإدارة والحكم وندرة التأليف فيها .

والكتاب من أصغر الكتب حجماً وأكبرها وفاء بأكبر الموضوعات فى أوضح عبارة أو إشارة .

يقول فى أول فصل من الكتاب :

(دخل أبو مسلم الخولانى على معاوية بن أبى سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير . فقالوا : قل السلام عليك أيها الأمير فقال : السلام عليك أيها الأجير . . . قال معاويه دعوا أبا مسلم ؛ فإنه أعلم بما يقول . قال أبو مسلم : « إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها . . .) .

ويختم بفصلين فى المشورة ووجوب اتخاذ الإمارة .

يقول عن المشورة : قال الله تعالى (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) وقد أثنى على المؤمنين بذلك فى قوله : (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) .

---

(١) وفى هذا الكتاب حقه وبين قيمته فى الإصلاح السياسى والاجتماعى الإسلامى المستشرق المعاصر لاوست فى كتابه رسالة فى النظريات الاجتماعية والسياسية لتقى الدين بن تيمية طبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٣٥

Laoust Essai sur Les Doctrines Sociales et Politiques de Takei el Din Ahmad Ibn Taymia Institut Francais d'Archéologie Orientale.

Le Caire 1935.

ويقول ابن تيمية . فى الإمارة (وأولو الأمر صنفان الأمراء والعلماء . وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس) .

وفى وجوب اتخاذها يقول : (روى الإمام أحمد فى المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم) فأوجب تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع ؛ لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم . ويقال : (ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان) والتجربة تبين ذلك ؛ ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : (لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان) وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (الدين النصيحة . . . الدين النصيحة . . . الدين النصيحة ، قالوا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربةً ؛ وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها . . .

ويختم بقوله : (فعلى كل واحد الاجتهاد فى إيثار القرآن والحديث . . . مستعيناً بالله فى ذلك فمم الدنيا تخدم الدين كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه (يا ابن آدم ، أنت محتاج لنصيبك من الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة فر بنصيبك من الدنيا فانتظمها انتظاماً . وإن بدأت بنصيبك من الدنيا فاتك نصيبك من الآخرة وأنت من الدنيا على خطر) . ودليل ذلك ما رواه الترمذى عن النبى ﷺ أنه قال : (من أصبح والآخرة أكبر همه جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن أصبح والدنيا أكبر همه فرق الله عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . . .) .

ابن قيم الجوزية (٧٥١)

تحمل المدرسة الجوزية لقب أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (٥٩٧) . بناها ابنه محيى الدين لتدريس مذهب الإمام أحمد ، فخلدت المذهب وصاحبه ومنشئها ومن تحمل اسمه . وخلد الجميع (ابن القيم) ؛ إذ كان أبوه (قيم المدرسة الجوزية) فلقبه المسلمون «ابن قيم الجوزية» أو «ابن القيم» وكانت عبادته وزهادته جواز المرور لمتابعة منهج أستاذه ابن تيمية .

وكما يقول الحافظ بن حجر (٨٥٢) : (هو الذى هذب كتبه (كتب ابن تيمية) ، ونشر علمه ، وكان ينتصر له فى أغلب أقواله) .

يقول عنه ابن رجب : (وافتن فى علوم الإسلام ، فكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين واليه المنتهى . وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط لا يلحق فى ذلك ، وبالفقه وأصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى . وبعلم الكلام ونظير ذلك ، وعالماً يعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم له فى كل هذه الفنون اليد الطولى) .

بهذه القدم الراسخة فى العلم والورع يتصدى ابن القيم لشرح المنهج السلفى فى العقيدة فهو : الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وكل ما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون شيئاً من ذلك . وإن الساعة آتية لا ريب فيها . وإن الله يبعث من فى القبور . وإن الجنة والنار موجودتان الآن . وباقيتان لا تفنيان . وإن الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وإن له يدين بلا كيف كما قال (لما خلقت بيدى) وقال (يداه مبسوطتان) وإن له عينين بلا كيف . كما قال (تجرى بأعيننا) وإن له وجهاً كما قال (وجه ربك) إلى غير ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة . كما أثبت السلف لله العلم والسمع والبصر والإرادة والقوة وغيرها كما قال تعالى (أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وأن الخير والشر لا يكونان إلا بمشيئة الله تعالى ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ومن زعم أن الله شاء لعباده الذين عصوه الخير والطاعة . وأنهم شاءوا الشر والمعصية ، وعملوا على مشيئتهم فقد زعم أن مشيئة العباد أغلب من مشيئته تعالى .

ولا يشهد السلف على أهل القبلة أن أحداً فى النار لذنب عمله إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يقرون لأحد أنه فى الجنة إلا أن يكون فى ذلك حديث . ولا يكفرون أحدا بذنب ولا يخرجونه من الإسلام إلا أن يكون فى ذلك حديث . ويفهمون صفات الله تعالى من غير تأويل أو صرف لها عن ظاهرها ولو لم يفهموا معناها لسألوا الرسول عنها كما كانوا يسألونه) .

ويقول : (والعصمة النافعة فى هذا الباب أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير كيف ولا تمثيل . بل تثبت له الأسماء والصفات وتنفى عنه مشابهة المخلوق ، فيكون إثباتك منزهاً عن التشبيه ونفيك منزهاً عن التعطيل . فمن نفى حقيقة الاستواء فهو معطل . ومن شبهه باستواء المخلوق على المخلوق فهو ممثل) .

فالله تعالى يقول : (ليس كمثله شيء) ، ويقول : (هل تعلم له سميا) وابن عباس يفسر السمى بأنه المثل فهاتان آيتان محكمتان تقطعان فى عدم المماثلة والتشبيه والتجسيم ولغنيان العقل عن أى تأويل .

ويقول فى أعلام الموقعين : (وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل ، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل)[1].

ويرى ابن القيم أن أسماء الله هى صفاته ؛ لأنها تدل على معنى زائد على الذات . فهو تعالى عليم سميع بصير قادر : أى له هذه الصفات . ويذكرنا (أن الناس تنازعوا فى كثير من الأحكام ولم يتنازعوا فى آيات الصفات وأخبارها فى موضع واحد ، بل اتفق الصحابة على كثرتهم والتابعون على ضخامة عداد علمائهم على إقرارها وإمرارها مع فهم معانيها . وإثبات حقائقها . وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً وأن العناية بها أهم لأنها من تمام تحقيق الشهادتين وإثباتها من لوازم التوحيد) .

وكتب ابن القيم الكثير فى الزهد والتوكل وإخلاص العبادة لله ليقدم للناس مسلكاً يساير مسلك السلف ، ويواجه مقولات المتصوفين . ودافع عن الاجتهاد والقياس وحمل على التقليد وابتكر الكثير . وما تزال كتبه مراجع أساسية لكل مجتهد عصرى يفكر على أساس الكتاب والسنة .

* * *

ثم حمل أبو القاسم الشاطبى (٧٩٠) مصابيح الفقه الإسلامى فى النصف الأخير من القرن . والفقيه رقيب العصر وطبيبه . فكان لزاماً أن يلقى الأضواء على آفاته ، فذم البدع التى أفسدت العقائد وخص منها إقامة الزوايا والأربطة للمتصوفة .

فالسلف لم يقيموا رباطاً إلا لمحاربة العدو ، ولم يتعبدوا فى الزوايا ، بل عبدوا الله فى كل مكان . ولم ينقطعوا عن العمل فى الدنيا للآخرة ، ولم يؤثر عن زعماء المتصوفة شىء من ذلك لا الفضيل بن عياض ولا إبراهيم بن أدهم ولا الجنيد أو الخواص أو الحارث المحاسبى أو الشبلى ، وليست الأفكار والأدعية المأثورة التى «يجتمع عليها» البعض بعد الصلاة ، وصارت كالشعائر الدينية ، إلا بدع .

ولم تنقطع البدع بل كانت تتفاقم . واستحب البعض الإخلاد إليها ككل طقس يتجسد فيه معنى فيستغنى عنه بشكله . وتنشأ الشحناء بين المصدقين والمكذبين والجاهلين والمتعالمين والمتعلمين . ثم يألف الناس الشذوذ . وللشذوذ عدوى كعدوى المرض .

وعندما يمسى الشذاذ كثرة يفرض الشذوذ نفسه ، وينصب اللؤم شراكه ، ويهتبل النهازون والمنافقون فرص الجهالة والسذاجة والشهوة ، والتعصب والفهم الضيق واستعلاء الطواغيت على جماعة تعمى عن حقائق الدين ، وتنصرف عن الجد والدأب إلى الرضا بالنصيب الأدنى والانحناء أمام

---

(١) والفخر الرازى . . من زعماء المفسرين بالتأويل غير الرمزى والباطنى - يقول فى خواتيم حياته فى كتاب أقسام اللذات : (اعلم أنه بعد التوغل فى هذه المضايق والتعمق فى الكشف عن أسرار هذه الحقائق رأيت أن الأصوب الأصلح فى هذا الباب طريقة القرآن الكريم والفرقان العظيم وهو ترك التعمق والاستدلال بأقسام السموات والأرض على وجود رب العالمين ثم المبالغة فى التعظيم من غير مبالغة فى التفاصيل) .

الأقوياء . وبذر قرن الشيطان بين العلماء ، فيصيب عملهم أو خلائقهم أو طرائقهم فيتشاكلون الدهماء . . ومن ذلك شكا الحشويون شيخ الإسلام العز بن عبد السلام (٦٦٠) فى القرن السابع وشكوا التاج السبكى (٧٧٠) فى القرن الثامن وشكا ابن عطاء ابن تيمية .

ودارت كل الشكاوى على مدار هذه القرون البئيسة حول صحة العقيدة أو زيفها حتى كان الشيخ علاء الدين العطار من علماء الأزهر وتلميذ محيى الدين النووى (٦٧٦) يسير متأبطاً وثيقة صادرة من القاضى تعلن صحة إيمانه مخافة أن يغتاله الخراصون بتهمة ! وعندما يكفّر الجاهلون رجلا صالحاً فى مقابله آلاف أو ملايين من الضلال يعتبرونهم صالحين !

وذات يوم فى القرن التاسع وقع شخص فى عبارة موهمة وأفتى العلماء بتكفيره لولا أن السلطان طلب إجماعهم لتوقيع العقوبة . فتفانوا إلى جلال الدين المحلى فجاءوا بالرجل فى الحديد يسأل الجلال : ما مستند التكفير؟ قال صالح البلقينى : قد أفتى أبى شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى (٨٠٥) فى مثل هذا بالتكفير . قال الجلال - شارح المنهاج - تريد أن نقتل رجلا مسلماً موحداً يحب الله ورسوله بفتوى أبيك ! حلوا عنه الحديد .

وأخذ الرجل ومضى به إلى العافية !

أما السيوطى (٩١١) فعين قيماً لتكية سعيد السعداء ، فرأى فيها رجالاً فاكهين رافهين لا قضافا عجافا زاهدين ، فهمّ بتطبيق شرط الواقف عليهم ، وهو الفقيه الحافظ الذى يزهو به القرن العاشر ، فألقوا به - وهو فى كامل ثيابه - فى الميضأة .

وكان طبيعياً أن يغزو الصليبيون أرض المسلمين فى هذه القرون[1] وأن تتداح موجات التتر فى

---

(١) فى سنة ٤٥٣ انبهر روجار النورماندى فرصة ضعف الفاطميين فاستولى على صقلية ، وفى سنة ٤٨٥ هـ ، ١٠٩٢ م) دعا بطرس الناسك أهل أوربة جميعا لاقتحام أرض الإسلام ، وانعقدت المجامع الكنسية (١٨ / ١١ / ١٠٩٥) وقامت الحرب الصليبية سنة ١٠٩٧ ولما دخلوا بيت المقدس قتلوا سبعين ألفا من المسلمين .

ولما استردها صلاح الدين بانتصار حطين (٥٨٣) أعطى أهلها الأمان الذى أعطاه عمر أهلها عند فتحها سنة ١٥ وبصه يضع العدالة العالمية فى الإسلام موضع التطبيق :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من حليهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد . وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله ؛ فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥) .

أرض المسلمين إلى بغداد فدمشق(١) وأن يبعث سلطانهم إلى القاهرة يقول لأهلها :

(فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم فإنها لا تحميكم فما لكم من سيوفنا خلاص) .

ورد المصريون التتار فى عين جالوت سنة ٦٥٨ فحموا الغرب من الشرق كما ردوا الصليبيين فى المنصورة فحموا الشرق من الغرب . وفى سنة ٦٩٠ أجلت جيوشهم الصليبيين من أرض العرب إلى الأبد ، وانقضى قرن ليغير تيمور لنك فى إحدى صواعقه على بغداد سنة ٧٩٥ ، ثم يتغلب عليها التركمان . ثم تحل محلهم الدولة الصفوية فى بغداد سنة ٩٠٥ . وفى سنة ٩٢٣ (١٥١٧) دخل الأتراك العثمانيون مصر وأرخى الظلام التركى سدوله على أرض العرب .

* * *

فى هذا القرن العاشر وفيما بعده بلغت دعاوى الأولياء وكراماتهم منتهاها . وظهرت فى مؤلفات متعددة للشيخ عبد الوهاب الشعرانى (٩٧٣) - وكان عالماً يدرس الفقه الشافعى بالأزهر - روايات يرفضها العلم ، ويستخرج منها السذج دلالات على الكرامات تمهد الذهن لرفع التكليف عن بعض البشر واقتدارهم على الإتيان بالخوارق لفنائهم عن أنفسهم واتحادهم بالذات الإلهية أو حلولها فيهم .

وعندما يعلّم العلماء مالا يسيغه العقل أو يشكك فى العقيدة ينزلون بعقول المتعلمين وغير المتعلمين إلى ضروب شرك لا تحصر :

فعلى مقربة من الجامع الأزهر أطلق العامة اسم «شجرة الحنفى» على شجرة فى فناء مسجد الحنفى يطوف بها النامس لينالوا حظوظهم من الدنيا .

ومن التكايا واحدة فيها نعل قديمة يتداوى بشرب مائها العشاق ليظفروا بهواهم .

أما دراويشها فكثر . تطول قلانسهم أو تقصر قدر ما يتصدرون أو يتأخرون فى درجات التكية !

---

(١) يتحدث ابن الأثير فى تاريخه عن سفك التتار وفتكهم فيقول :

(ولعل الخلق لايرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا ، إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه . وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ! فإن قوما خرجوا من أطراف الصين إلى حدود العراق فى أقل من سنة . هذا مالم يسمع بمثله . ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة ومايجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء أو أشد . وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا ، وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة فى نحو سنة . ولم يبت أحد من البلاد التى يطرقونها إلا وهو خائف يترقبهم ويترقب وصولهم .

أما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولايحرمون شيئا . فهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها لايعرفون نكاحا . بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد فإنه لايعرف أباه) .

ومن بوابات القاهرة بوابة المتولى دقت بها مسامير يعلق عليها أصحاب الأمانى شعرات أو خيوطاً تصل أمانيهم وحاجاتهم بعالم الغيب .

وفى طنطا ودسوق وقنا ، وغيرها من أقاليم مصر – كما فى غير مصر – أضرحة توقد عليها السرج . وتشد إليها الرحال . وتقدم إليها النذور ، وتنحر الذبائح ، وتولم الولائم ، وتقام لحفلات للمغنين والمغنيات ، والمنشدين والمنشدات . ويسمى السامر « مولدا » للولى الميت يعيد فيه التاريخ فساد الموالد حول أضرحة القديسين من قبل الإسلام ، لكنه لا يعيد نهى العلماء والصلحاء عن ذلك الفساد ! [١] .

ومن الناس من يمسه مسيس من الشيطان أو تكون به جنة ، فينسب إليه بعض العلم الخفى أو يكون خفيف الهامة فينسب إلى همهمته أو هينمته مالا يعنيه !

ومن الناس من يخرجون الأرواح الشريرة بمؤاخاة أرواح أمثالها فى العالم الآخر أو العالم السفلى .

ومن الناس سحرة يكيدون للآخرين ، ومنهم من يبطلون سحر الساحر وكيد الكائد ، ويمكنون من الإنجاب أو الإخصاب ، أو دفع الشر أو إيقاعه بغيرهم .

ومن الناس من نلتمس لديهم الشفاعة أحياء كانوا أم أمواتاً .

ومن الناس من يجيئون بالغائب إلى حضرة الطالب .

ومن الناس باعة الأحجار والأوراق والحرز والخرق البالية للرقى والتمائم والأحجبة – والوصفات الكاذبة .

ومن الناس من لا تحرقهم النار فيخترقوها ولا تلدغهم الثعابين فيأكلوها – وكثر من يدعى رفع التكليف أو يظلمه غيره فيدعى ذلك له فإذا ارتكب فاحشة فلا بأس عليه !

أما الأذكار فألفاظ : فيها الراقصون والصالحون والمنشدون والدفوف والمرتزقة من الضلال أو الجهال .

– ومن الناس من يرزقون بغير سعى ، بل إن من الناس من يُرزقون غيرهم .

* * *

وعم الأمر الجلل وطمّ . فنزل العلماء ونزلوا حتى أصبحوا عامة . تنفق فيهم هذه الدعاوى ويندر فيهم من يدركون أن الكرامة درجة فضل فى العبادة والسلوك وما عدا ذلك غير إسلامى .

وعندما يفسد العلم والمعلمون تصبح المفسدة هى القاعدة ، ويتسع الخرق على الراقع اتساع الفرجة بين الحق والضلال ، وتنبت النابتة فى أرض سبخة لا تنغيا غير أن ترتزق ، فتفوق فى ميلها إلى الدنيا عن الدين ما قاله ابن الجوزى من قرون :

(إن المتقدمين من الصوفية كانوا يخرجون عن أموالهم زهداً فيها فيقصدون الخير وإن غلطوا فى

الفعل ، أما المتأخرون منهم فقد مالوا إلى الدنيا. وقد دخل أحد الصوفية على أمير فوعظه فوصله بصلة قبلها فقال الأمير : كلنا صيادون وإنما الشباك تختلف) .

وازدادت الأجيال دحرجة نحو الحضيض وأصبح الأدعياء أولياء ، والمرتزقة علماء يستعين السلطان بهم فيمكن لهم ليمكنوا له ! ولكل أمة الحكومة التي تستحقها ، ووسائل العيش التي تستطعمها ، فلا عجب إذا قرأنا من الكلام عن ذلك العصر.

(كان التصوف حالاً فصار كاراً (حرفة) ، وكان احتساباً فصار اكتساباً ، وكان استتاراً فصار اشتهاراً ، وكان اتباعاً للسلف فصار ابتياعاً للعلف . وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تعبداً فصار تكلفاً ، وكان تخلقاً فصار تملقاً . وكان سقماً فصار لُقماً ، وكان قناعة فصار فجاعة ، وكأن تجريداً فصار ثريداً) .

قبس من النور

وفى القرن الثانى عشر أضاء التفكير العلمى بقبس فيه هدى ، فعاجله الجهال بالإطفاء :

قص الجبرتى فى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار قصصاً يوضح حقائق العصر فى مصر من حوادث رمضان سنة ١١٢٣ = ١٧٤٤ : (أن واعظاً تركيا وفد من بلاد الروم (تركيا) إلى مصر جلس يعظ فى جامع المؤيد (بالقرب من الأزهر) وكثر عليه الناس . فذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم ، وأن فعل ذلك كفر يجب على الناس تركه . وقد ذكر قول الشعرانى فى كتابه (الطبقات الكبرى) أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ . فقال : إنه لا يجوز ذلك ولا تطلع عليه الأنبياء فضلاً على الأولياء . وكان فيما قال : إنه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء كما لا يجوز بناء التكايا ويجب هدم ذلك جميعه) .

وألقت إليه الجماهير صغوها وتدخلت الدولة وطرده الوالى بعد أن أفتى بزجره اثنان من العلماء [1] .

---

(١) وتفصيل ذلك فيما رواه الجبرتى : (فقامت لهذا قيامة العلماء وأدعياء العلم فدسوا عليه من يشوش ويخفت صوته . ولكن الواعظ مضى فى طريقه وانتقل هو وأتباعه من القول إلى العمل . وبدأ الصدام بأن خرج الواعظ وأتباعه بعد صلاة التراويح . ووقفوا بالبابيت والأسلحة على (باب زويلة) فهرب الذين يقفون به . ثم قطعوا ما علق من جوخ وأكر وهم يقولون أين الأولياء ؟ وهنا أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ليفتوهم فى قول هذا الواعظ . فكتب شيخان من شيوخ الأزهر هما الشيخ أحمد النفراوى والشيخ أحمد الخليفى يقضيان قول هذا الواعظ ويطعنان من الحاكم زجره . وأخذ بعض الناس هذه الفتوى فدفعوها إلى الواعظ فى -

ويبدو القارئ من هذا النبأ أمور :

الأول : أن الجماهير كانت أبصر بحقيقة التوحيد من الشيخين اللذين تفاقى المسلمون إليهما فأفتيا بزجر مسلم يدافع عن التوحيد وهو أصل الإسلام . وأين من خطيئتهما ما أوخذ عليه ابن البنقيني من نحو قرنين ! ليدلنا الجمع بين الخطأين على مقدار تتابع الانحدار .

الثاني : أن الوالي التركي كان حريصاً على مرضاة المفتين الجاهلين لجهالته أو فساد نيته ييسر للأتراك أمر السيطرة على الأمة .

الثالث : أن ذلك الوالي أنجى الواعظ الوافد من أرض الروم من عالمين رسميين مع أن هواه معهما ضد الواعظ ، لأن الوالي كان تركيا مثله .

لكن السماء لا تترك الدين لولاة أميين أو علماء معممين . لقد قدرت للإسلام أن ينتصر وأن تتراءى بشائر النصر في جزيرة العرب ، ليستهل عصر جديد بدعوة جديدة ، في القرن ذاته ، على يد محمد بن عبد الوهاب .

* * *

وحقيق علينا في ختام هذا الباب أن نستصحب بعض مسلّمات هي :

١ – إن إسلام الوجه لله لا يكون إلا له وحده ؛ ولذلك كان النطق بالشهادة مدخله ، وكان شعار المسلم بعد الشهادة : «الله أكبر» لما في الشهادة من إثبات العبادة لله ونفيها عن غيره . وما في الشعار من اعتزاز المسلم بقوة الخالق الكبرى لا الحكام ولا الأموال ولا الأقوياء ، ولا صوارف الحوادث ، ولا شياطين الوهم أو العجز أو سواها ، لتصيب المسلم بما لا يريده الله . ولأن الناس كلهم تحت سلطانه نظراء ، وأن الفضل للتقوى والعمل الصالح .

مجلس وعظه فقال :) . . . أنا أريد أن أجادلهم في مجلس القاضي » واجتمع عليه من الناس قريب من ألف فسار بهم وسط القاهرة إلى أن دخل بهم بيت القاضي . قال القاضي : اصرفوا هذه الجموع لم نحضرهما ونستمع إلى مجادلتكم معها ، ولكن أحدا من الجموع لم ينصرف وقالوا له : ماتقول أنت في هذه الفتوى ؟ فقال : هي باطلة . فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك فقال : إن الوقت قد ضاق والشهود قد خرجوا ، فلتترك ذلك إلى الغد فلما سمع الناس من ترجمان القاضي هذا الكلام ضربوه وختن القاضي ومعه حريمه . ولكن الناس لم يتركوا نائب القاضي حتى كتب لهم الحجة بصواب رأي الواعظ وخطأ رأي الشيخين . . وقصد الناس بعد ذلك يوما مسجد المؤيد لسماع واعظهم ، فلم يجدوه ثم قال قائل منهم : إن القاضي منعه من الوعظ فقام رجل منهم فتبعه الجمع الغفير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضي وقالوا له : أين شيخنا ؟ فقال لا أدري ! فقالوا له : قم واركب معنا إلى الديوان لنكلم الباشا في هذا الأمر وتسأله أن يحضر أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معا : فإن ثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم . فركب القاضي معهم مكرها ، فلما عرف الباشا قصة القوم والواعظ أعطاهم أمرا بان يحضر الشيخان المفتيان والخصم لمجادلة الواعظ ، ولكن أمر الباشا كان لتسكين الفتنة وصرف الناس ، فإنه بعد أن أخذت جماعة الواعظ من الباشا ما يريدون من أمر أصدر الباشا أمرا باخراج الواعظ من مصر وإسكات هذه الفتنة .

ومن ثمة قوة المسلم وشجاعته وازدهار جماعته إذا أدركت معنى التوحيد ورفعت شعاره .

٢ - إن الإسلام دين علمى ، كتابه ثابت ونصوص سنته مسندة لا خرص فيها ولا تخمين : فإذا أصبح المسلمون ضحايا الباطنيات والخرافات خرجوا على قانونهم وحق العقاب عليهم .

٣ - إن المجتمع الإسلامى لم يتدهور إلى منحدر الخرافات إلا بعد قرنين أو نحوهما من إقفال باب الاجتهاد . والقرآن والسنة ينهيان عن التقليد واتباع رأى إلا بدليله . وينفيان قداسة الأشياء والآراء والأشخاص[1]. وإذا جاز تقليد جاهل لعالم فى أى تعامل لم يجز ذلك فى أمور العقيدة فإنما يجب الإيمان بالتوحيد والرسالة عن فهم لا مجرد تقليد (للغير) فيها .

٤ - إن القرون الخمسة من الخامس الهجرى حتى العاشر شهدت تقهقر المجتمع الإسلامى وازدهار الفكر الباطنى وخرافات ليس لها ضابط . فى حين شهدت أوربة عصر الإحياء والإعداد للنهضة العلمية والصناعية وكشف العالم الجديد .

٥ - إن أمم الغرب فى هذه الحقبة لم تأخذ من العالم الإسلامى إلا العلوم ، ولم تلتفت إلى أساطير المتصوفة .

ومن العلوم أخذت المنهج الإسلامى فى التجربة والاستخلاص ، فخرجت على منهج الكنيسة الذى يُخضع الكشوف الفكرية والحرية العلمية لمقررات الكنيسة ونظرياتها ، فكان ما اطرحته أمم الغرب من أفكار باطنية للصوفية معادلاً لما اطرحته من أوامر كنسية فيها تعطيل للفكر والعلم .

٦ - إن المستشرقين مبشرون فى ثياب علماء ، ومن ذلك دَأْبُ المحدثين منهم على الإذاعة بفرق المتصوفة الفلاسفة وإدبارهم عن الإذاعة بالفقه وأصوله . والفقه أعظم ممثل للإسلام وحضارته ، فى حين أكثروا الكلام عن الجماعة التى يمثلها « ابن عربى » - لم يكن لأئمة الفقه وعظماء الفقهاء كبير أهمية لديهم ، مع أن الحضارة الغربية حضارة تسوّد القانون ، وأن هؤلاء الفقهاء فى سماء ما طاولتها سماء .

إنما أراد هؤلاء المستشرقون أن يعرضوا وجه التصوف الفلسفى ، بما فيه من محاربة للعقل الإنسانى ، ليعرضوا صورة مرفوضة مكذوبة على أنها صورة عظماء المفكرين فى الإسلام ، وليطمسوا

---

(١) وتقديس الأشياء والأشخاص تراث كنسى : فالبابوات منذ القرن الثامن الميلادى فى بيزنطة يعلنون أن (الأيقونة الجميل العامى يرى فيها مالا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس) وفى آخر المجامع المسكونية (نيقية ٧٨٧) أعلنت الإمبراطورة إيريني تقديس الأيقونات .

ومن قبلها اعتبر (يوساب القيسارى) قسطنطين منشئ القسطنطينية هو الحوارىّ الثالث عشر .

والفرس أسوأ : لقد كتب كسرى إلى هرقل لما غلب الروم (من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله إلى عبده الفاجر عديم الإحساس . . . إنك تقول : إنك تثق فى إلهك فلماذا إذن لم تخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والإسكندرية) .

ووعد القرآن بنصر الروم فانتصروا فى بضع سنين على «سيد الآلهة» .

أو يبخسوا شأن الحقيقة التى أجمع عليها المعاصرون من علماء الجامعات والتى يعلنها برنارد لويس – بين عشرات – حيث يقول عن المنهج العلمى المعاصر فى العالم العلمى :

(إن أوربة فى القرون الوسطى تحمل دينا مزدوجاً لمعاصريها العرب . فهم الوسيلة التى انتقل بها إلى أوربة هذا التراث الثمين ، كما تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل فوق السلطة ، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة . وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة) .

obeikandl.com